الهزيمة النفسية أسبابها وأثرها في السقوط الحضاري دراسة في ضوء السنة النبوية وأحداث السيرة

د. يوسف عبد اللاوي
جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي

الملخص:

الهزيمة النفسية حالة من اليأس والإحباط والاستعمار النفسي التي تتغلغل في نفوس الكثيرين دون أن يدركوا أثره وخطره؛ بل دون أن يشعروا بإصابتهم به.

وهي وسيلة إستراتيجية شديدة التأثير، استعملت قديما وحديثا لهزم معنويات الخصم تمهيدا للقضاء عليه أو إبعاد خطره على الأقل.

وهذه الظاهرة لها أسباب تمهد لظهورها، وتعمل على تغذيتها وأخرى تدفعها، أو تضعف من تأثيرها

وفي خضم التدافع الحضاري بيننا وبين من يقف عائقا دون تمدد رسالة الحق، ووصول هداية السماء للعالمين، مما قد يحتم وقوع الصدام المسلح لحسم النزال، فإن استغلال مثل هذه الوسيلة مطلوب بل ومرغوب.

وفي السنة النبوية وأحداث السيرة العطرة شواهد بارزة تؤكد ذلك، إما تحريضا على استغلالها وحسن استعمالها، والاستفادة منها، أو تحذيرا من الاستسلام لأثرها الماحق.

في هذا البحث رصد للظاهرة وأثرها في السقوط الحضاري من منظور نبوي تنظيرا وتطبيقا من خلال السنة النبوية والسيرة العملية .

Abstract

Psychological defeat a state of despair and frustration and psychological colonization penetrating the hearts of many people without realizing its impact and danger; but without feeling infected him.

It is a way of high-impact strategy, used in the past and recently defeated opponent for morale as a prelude to eliminate it or at least keep the threat.

This phenomenon causes pave the way for her to appear, and working on nutrition and other paid, or weaken the impact of In the midst of the stampede of civilization between us and the obstacle of

expansion without the right message, and the arrival of the sky guidance to the worlds, which may necessitate an armed confrontation to resolve the bout, the exploitation of such means required or even desirable.

In the Sunnah and events Biography fragrant prominent evidence confirms it, either incitement to exploit good use, and benefit from, or a warning of the surrender of their impact grinding.

In this research, monitoring of the phenomenon and its impact in the fall of civilization from the perspective of prophetic lectures Applying through the Sunnah and biography process.

مقدمة:

الهزيمة النفسية سقوط حضاري أشد فتكا من الهزائم العسكرية التقليدية، وخطورتها تكمن في كونها استعماراً للعقول والقلوب، قبل أن تكون استعماراً لخيرات الأرض ومقدراتها.

وعلى شدة وقع الاستعمار العسكري إلا أنه وسيلة قوية لإيقاظ الأمة من غفلتها، وتقوية لُحمتها، وتحرُّك غيرتها، وإحياء حميّتها الدينية، وفي النهاية طال هذا الاستعمار أم قصر فإن مصيره الرحيل أما الاستعمار النفسي فيتغلغل في نفوس كثير من أبناء الأمة دون أن يدركوا أثره وخطره؛ بل دون أن يشعروا بإصابتهم به.

وقد تحول الغزو النفسي إلى أداة فعالة في الصراعات الفكرية والإعلامية في حمأة التدافع الحضاري تستغله الدول الفاعلة التي تمتلك الوسائل المادية والمعنوية، وتبني استراتيجياتها الحالية والمستقبلية للاستمرار في الحياة من موقع القوة على مشروع النفوذ والسيطرة والاستغلال للدول المستهدفة، كي يدب فيها الوهن ويستحكم اليأس وتستسلم في النهاية إلى الغازي.

والهزيمة النفسية ظاهرة تخضع لما تخضع له أية ظاهرة من عوامل تمدها وأخرى تدفعها وتضعفها، وهي تظهر في وقت دون وقت؛ بسبب عوامل مكتسبة وليست أصيلة في بنية الأمة وتكوينها، أي أنها حدث طارئ يمكن تجاوزه.

والسنة النبوية والسيرة العملية فضاء خصب لرصد هذه الظاهرة وتحليلها وكشف أسبابها وعوامل تغذيتها داخليا وخارجيا، وأثر ذلك في التدافع الحضاري.

فالسنة النبوية أولت عناية خاصة بالنفس البشرية المؤمنة من زاوية الحفاظ على توازنها وقوة معنوياتها وصلابة إيمانها، ووقايتها من عوامل اليأس والإحباط، بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، حتى لا تتحول إلى نفس مستقبلة لكل وافد دخيل من قبيل الانبهار والإعجاب، أو من قبيل الخوف والذعر.

ولقد شكلت بعض أحداث السيرة النبوية، وفي المغازي تحديدا، نماذج عملية تستلهم منها العبر والدروس في مجال أثر الهزيمة النفسية على مردود المواجهة مع العدو، وكانت غزوة أحد أبرز مثال على ذلك، حيث كان لانخفاض المعنويات والهبوط النفسي عند المسلمين أثرا في تحديد مسار المعركة لصالح العدو، وكيف عمل النبي صلى الله عليه وسلم وبالوسيلة ذاتها، أي الضرب على وتر الرفع من معنويات المسلمين، والتأثير على معنويات الخصم، لاسترداد بعض المكاسب، وهذا الذي تم فعلا في غزوة حمراء الأسد في أعقاب أحد مباشرة.

وهذه الدراسة مزيج بين الطرح الفكري والتحليل التاريخي والدراسة الموضوعية لبعض نصوص السنة النبوية والسيرة العملية ذات الصلة بالموضوع.

وسأتناول هذا الموضوع في مطلبين أساسيين ومطلب تمهيدي:

– **المطلب التمهيدي** عبارة عن مدخل مفاهيمي يتناول شرح المفردات المكونة للعنوان من معاجم وقواميس اللغة، وكذا مفهوم الانهزام النفسي والسقوط الحضاري، كمصطلحات مركبة.

– **والمطلب الأول** خصص للكلام عن أسباب الهزيمة النفسية باعتبارها ممرا مهماً لفهم هذه الظاهرة وانعكاسها على المستوى الحضاري للأمة في ضوء نصوص السنة والسيرة.

– **وفي المطلب الثاني** حديث عن أثر الهزيمة النفسية في السقوط الحضاري للأمة، هذا السقوط الذي لا يعني الزوال والاندثار وإنما ذهاب الريح والأثر في مراحل تاريخية معينة أيضا في ضوء الأحاديث وأحداث السيرة.

ودعمنا هذه الدراسة ببعض الآيات وأحداث التاريخ المتعاقبة وفيها من الشواهد العملية التي تبين أثر الهزيمة النفسية في السقوط أو الأفول الحضاري.

ثم أنهينا الدراسة بخاتمة تحوي عددا من النتائج.

المطلب التمهيدي: مدخل مفاهيمي

أولا: مفهوم الهزيمة النفسية

أ– تعريف الهزيمة: من الهَزْم: وهو أن تَغْمِزَ الشيءَ بيدك فيَنْهَزِمَ إلى داخل، كالقِثّاءةِ والبِطِّيخة. ومنه الهَزِيمة في الحَرْب[1] .

وقال ابن منظور:وأَصل الهَزْم كَسْر الشيء وثَنْيُ بعضه على بعض، والهَزِيمةُ في القتال الكَسْرُ والفَلُّ هَزَمَه يَهْزِمُه هَزْماً فانْهَزَمَ وهُزِمَ القومُ في الحرب[2] .

ب– تعريف النفس: النفس: الروح ومن معانيها، ما يكون به التمييز، قال ابن بري أَما النَّفْس الرُّوحُ والنَّفْسُ ما يكون به التمييز فَشاهِدُهُما قوله سبحانه (اللَّه يَتَوفَّى الأَنفُس حين مَوتِها)[3] فالنَّفْس الأُولى هي التي تزول بزوال الحياة والنَّفْس الثانية التي تزول بزوال العقل[4] .

ج– تعريف الهزيمة النفسية:

مما سبق يتضح أن الهزيمة من الهمز والكسر، ومنها الهزيمة في الحرب والهزيمة النفسية وغير ذلك، ويمكن أن نعرف الهزيمة النفسية بما يأتي:

1– معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة : 1399هـ – 1979م، (51/6) .

2– لسان العرب، لابن منظور، دار صادر –بيروت– طبعة 6، 1417هـ/1997، (610/12) .

3– الزمر: 42.

4– لسان العرب 234/6 .

هي استصغار النفس وانكسارها واستذلالها أمام العدو، أو الخصم، أو النفس الأمارة بالسوء، أو أمام شدائد الدنيا وبريقها وزخرفها.

وبمعنى، انكسار إرادة النفس أمام حدث معين، أو واقع معين، أو فكر معين، أو ظاهرة معينة؛ بحيث لا تقوى على مجابهته، فهي تستسلم أو تسلم بدون تفكير في التخلص منه أو مواجهته؛ لذلك انكسار الإرادة يعني: لا قدرة ولا استطاعة[5] .

ثانيا: مفهوم السقوط الحضاري

أ- تعريف السقوط: السَّقْطةُ الوَقْعةُ الشديدةُ سقَطَ يَسْقُطُ سُقوطاً فهو ساقِطٌ وسَقُوطٌ وقع.

ومنها السقطة: وهي العثرة والزلة[6] .

ب- تعريف الحضارة: من الحَضَرُ بفتحتين خلاف البدو، الحاضِرُ ضد البادي والحاضِرةُ ضد البادية وهي المدن والقرى والريف والبادية ضدها، يقال فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية وفلان حَضَرِيٌّ وفلان بدوي[7].

جاء في لسان العرب[8] : (حضر) من الحُضورُ نقيض المغيب والغَيْبةِ حَضَرَ يَحْضُرُ حُضُوراً وحِضَارَةً.

ج- تعريف السقوط الحضاري: لا شك أن السقوط هي الوقعة الشديدة، لكن من معانيها كما رأينا العثرة والزلة وهما أخف من الأولى وكلاهما سقوط.

كما أنه من المعاني الجميلة للحضارة ما ساقه ابن منظور عندما قال: من الحضور ضد المغيب، وهو عين ما تتسم به الحضارة في معناها الاصطلاحي.

5- مجلة البيان، العدد: 214، جمادى الآخرة، 1426هـ، -السعودية- ندوة باشتراك عدد من الدكاترة المتخصصين بعنوان "جيل الصحوة بين الهزيمة والانطلاق" .

6- لسان العرب 316/7 .

7- مختار الصحاح لابن أبي بكر الرازي، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – طبعة، 1415 – 1995، ص: 167 .

8- 196/4 .

فيمكن أن نخلص للقول أن السقوط الحضاري وإن كان يعني في ظاهر لفظه الأفول والزوال، يشمل أيضا الضعف والتآكل، والانهيار الداخلي للمجتمعات وذهاب قوة الأمم وعزتها وصولجانها،، ذلك عندما تذوب في غيرها وتنمحى شخصيتها المعنوية والروحية وهذا ما هو مستخلص من الحضارات التي أفل نجمها، وسقطت هيبة شعوبها عند الأمم الأخرى.

المطلب الأول: أسباب الهزيمة النفسية

لقد كان لهذه الآفة أسبابها التي مكنتها من قلوب هؤلاء المنهزمين، وقد يختلف المهتمون برصد هذه الظاهرة في حصر الأسباب وتتعدد صياغاتهم للتعبير عن ذلك، إلا أننا سنكتفي بذكر أهمها وأشدها أثرا –من وجهة نظرنا– وما يمكن أن تنضوي تحته جملة من الأسباب الجزئية أو الفرعية، وفي المجمل تنضوي هذه الأسباب تحت قسمين كبيرين: أسباب داخلية، وأخرى خارجية.

أولا: الأسباب الداخلية

أ– ضعف الإيمان

وضعف الإيمان يحمل صاحبه على أن يكون عبدا للنفس والهوى والشيطان، والعبودية لغير الله مظهر صارخ من مظاهر الهزيمة النفسية والتي بلا شك ستجعل صاحبها سهل الانقياد والاستسلام والهزيمة أمام العدو الظاهر في ساحات المعارك العسكرية أو الحضارية.

قال تعالى {أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}[9].

يقول سيد قطب: "التعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب، وحين تتعبد هواها، وتخضع له، وتجعله مصدر

9– سورة الجاثية: 23.

تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها، وتقيمه إلهاً قاهراً لها، مستولياً عليها، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول"[10].

وفي السنة النبوية ما يشير إلى هذا المعنى بكل وضوح فيقول عليه الصلاة والسلام: (ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينا القمر مضيء إذ علته سحابة فأظلم، فإذا تجلت عنه أضاء) فالقمر تأتي عليه أحياناً سحابة تغطي ضوءه، وبعد برهة من الزمن تزول وتنقشع فيرجع ضوء القمر مرة أخرى ليضيء في السماء، وكذلك قلب المؤمن تعتريه أحياناً سحب مظلمة من المعصية، فتحجب نوره، فيبقى الإنسان في ظلمة ووحشة، فإذا سعى لزيادة إيمانه واستعان بالله عز وجل انقشعت تلك السحب، وعاد نور قلبه يضيء كما كان [11].

فضعف الإيمان من أخطر أسباب الهزيمة النفسية، لأنه يؤدي إلى الفراغ الروحي والخواء النفسي، فتفقد النفس من جراء ذلك مناعتها، وتتلبس بحالة القابلية لكل وارد وشارد من الأخبار والأنباء، وتبني عليه دون تمحيص ولا روية، وفي ذلك ما لا يخفى من الفساد المجتمعي، والخطر الاستراتيجي.

ب- الذنوب والمعاصي:

وهي نتيجة طبيعية لضعف الإيمان، أو مظهر من مظاهره، وهي السبيل المفضلة للشيطان للإيقاع بالضحية، عن طريق الاستدراج من صغير الذنوب إلى كبيرها ثم إلى استفحالها، مما يشيع جوا من الهزائم الداخلية التي تمهد للهزائم الحضارية عسكرية كانت أو غير ذلك.

10-في ظلال القرآن، سيد قطب 3230/5، الطبعة السابعة سنة 1398هـ- 1978م، دار الشروق، بيروت.

11- المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق : طارق بن عوض الله، دار الحرمين - القاهرة، 1415، (247/5) وصححه الألباني انظر صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي –بيروت- ص: 1062 .

والذنوب إذا تواردت على القلب فإنها ترديه صريع الأمراض والعلل والوهن، مما يسهل قياده وتوجيهه نحو مستنقع الهزائم، على اعتبار أن القلوب الكليلة لا تقوى على الصمود والمواجهة، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا النوع من القلوب التي علاها السواد من أثر الذنوب فقال: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخرُ أسودُ مُرباداً [12] كالكوز مُجخِياً[13]، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) [14].

ولقد حذرنا الله تعالى من الشيطان وألاعيبه عندما تحدث عن غزوة أحد حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيم} [15]

يقول سيد قطب: "قد تكون الإشارة في هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال في نفوسهم الطمع في الغنيمة... ولكنها في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة وهي بعيدة عن الحمى الآمن والركن الركين" [16].

12- هو شيء من بياض يسير يخالط السواد كلون أكثر النعام ومنه قيل للنعامة ربداء. انظر صحيح مسلم بشرح النووي دار إحياء التراث العربي – بيروت – طبعة:2 /1392هـ (173/2) .

13- قال القاضي رحمه الله: شبه القلب الذى لا يعى خيرا بالكوز المنحرف الذى لا يثبت الماء فيه. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (173/2) .

14- رواه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن اليمان كتاب "الإيمان" باب "بيان أن الإسلام بدأ غريبا .." تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت- (128/1) برقم:231 .

15- سورة آل عمران: 155.

16- الظلال 497/1.

ج- الجهل بطبيعة الطريق

كثير من الناس يسقطون مع بدايات المسير إذا اعترضهم ما لم يكن في الحسبان من شدائد وابتلاءات ومحن، وهي من لوازم طريق الدعوة إلى الله عز وجل، نظرا لجهله بطبيعة المنهج والمسيرة (أَلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ)[17].

وتدبر التعقيبات القرآنية على مصيبة أُحُد: [مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ][18].

أي أن الله عز وجل شاء أن يميز بين الخبيث والطيب على أرض الواقع، وذلك بالاختبار والتمحيص.

وقد بين الله في قرآنه طبيعة هذا الفريق، فقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}[19].

وقد ذكر الواحدي[20] في سبب نزول هذه الآية ما يجلي هذه الحقيقة، فقال: روى عطية عن أبي سعيد الخدري قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقلني، فقال: إن الإسلام لا يقال، فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيرا، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: يا يهودي إن الإسلام

17- العنكبوت : 1-3.

18- آل عمران : 179.

19- الحج:11.

20- انظر أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوي، دار الاتحاد العربي للطباعة لصاحبها محمد عبد الرزاق –القاهرة- ص207.

يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب، قال: ونزلت – ومن الناس من يعبد الله على حرف–"[21] .

د– ترك فريضة الجهاد والاستسلام للعدو

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام به عز المسلمون وبتركه ذلوا، ولن تقوم لهم قائمة اليوم أو غدا إلا بإحياء هذه الفريضة الغائبة، قال تعالى: {إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[22] .

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحقيقة بوضوح حيث قال: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقرة ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم)[23].

وفي حديث آخر ربط إحياء فريضة الجهاد، بمداواة النفوس مما تعانيه من همّ وإحباط وهزيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بالجهاد، فإنه باب من أبواب الجنة، يُذهِب الله به عن النفوس الهمّ والغمّ)[24] .

21– الحديث أخرجه ابن مردويه في تفسيره من طريق عطية العوفي، انظر تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الزيلعي، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن السعد دار ابن خزيمة – الرياض– 1414هـ، الطبعة: الأولى، 379/2 .

والحديث أعله النقاد بضعف عطية العوفي، عبد المجيد الشيخ عبد الباري: وقريب منه ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن جابر، ولكن فيه أن الذي طلب الإقالة إنما هو أعرابي، ولفظه "جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموما فقال: أقلني، فأبى – ثلاث مرار – فقال: "المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طيّبُها" انظر الروايات التفسيرية في فتح الباري، عبد المجيد الشيخ عبد الباري، وقف السلام الخيري، الطبعة الأولى 1426 هـ – 2006 م 806/2) .

22– سورة التوبة: 39.

23– أخرجه أبو داود في سننه، دار الكتاب العربي –بيروت– رواه في كتاب (الإيجارة) باب (في النهي عن العينة) 3/ 291 برقم: 3464 صححه الألباني بمجموع الطرق انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط: 1995/1415، مكتبة معارف الرياض. (42/1) .

24– رواه الحاكم في مستدركه، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، 1411هـ/1990م، دار

إن الهزائم النفسية التي تولدت واستحكمت حلقاتها من وراء ترك الجهاد في سبيل الله هي التي كانت من أبرز الأسباب وراء الاجتياح الكاسح لبلاد الإسلام من طرف التتار الذين استباحوا دماء مئات الآلاف في عاصمة الخلافة بغداد دون أدنى مقاومة، بسبب الرعب الذي حل بالقلوب، من وراء الأساطير التي حيكت حول قوة وجبروت جنود التتار على أنهم إذا دخلوا معركة كسبوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة صاغرين، حتى قال الناس: "إذا قيل لك أن التتار قد انهزموا فلا تصدق"[25].

(لقد أحاط جنكيز خان –قائد التتار– نفسه بهالة من الرعب جعلت أعداءه يرهبونه، وعمل أعمالا من شأنها أن تعمق تلك الرهبة، وخلع على نفسه من الألقاب والأوصاف ما يناسب هذه المكانة التي وضع نفسه فيها)[26].

فما انجلى هذا الوهم المزيف، وهم التتار أسطورة الجيش الذي لا يقهر إلا بإحياء فريضة الجهاد في سبيل الله، عند ذلك علم المسلمون أن هزيمتهم الداخلية هي وراء كل الدمار الذي حصل في بلاد الإسلام على أيدي التتار.

(وبعد سقوط بغداد سنة 656هـ وانتشار الرعب في العالم كله من هؤلاء الغزاة الجدد المدمرين، رفض القائد المملوكي سيف الدين (قطز) تهديد قائد التتار، بل بادر إلى قتل رسله إليه، على غير ما عرف من سنة المسلمين، إيذانا بألا سبيل غير الحرب ولا بديل للصدام المسلح.

وكان اللقاء التاريخي الحاسم في 25 رمضان سنة 658 هـ في معركة (عين جالوت) وسجل التاريخ النصر لقطز وجنوده من أبناء مصر على جيوش التتار، ولم يمض على سقوط بغداد إلا عامان)[27].

الكتب العلمية –بيروت– كتب "الجهاد" (84/2) برقم: 2404، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

25- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة –القاهرة– ط1417هـ/1997م ص146.

26- الحرب النفسية –دراسات إسلامية هادفة– د: أحمد نوفل، دار الشهاب باتنة 1987 (114/1).

27- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص146.

وهو الوهم ذاته الذي تكلم عنه فيلسوف الحضارة مالك بن نبي، وهم القوة والجبروت الاستعماري الذي يعطل الضعفاء المهزومين عن فعل المقاومة والنهوض وكسر الأغلال، يقول رحمة الله عليه: (وأخيرا.. فإن المعامل الاستعماري يخدع الضعفاء، ويخلق في نفوسهم رهبة ووهما، ويشلهم عن مواجهته بكل قوة، وإن هذا الوهم ليتعدى إلى المستعمرين أنفسهم، فيغريهم بالشعوب الضعيفة ويزين لهم احتلالهم، إذ يحاولون إطفاء نور النهار على الشعوب المتيقظة، ويدقون ساعات الليل عند غرة الفجر، وفي منتصف النهار، لترجع تلك الشعوب إلى العبودية والنوم)[28].

هـ- عدم إدراك أسباب المد والجزر في تاريخ المسلمين وعدم إلمامهم بعوامل النصر والهزيمة:

المد والجزر في تاريخ المسلمين، أو قل النصر والهزيمة ليس حبيس لحظة تاريخية بعينها، فالمسألة مرتبطة بالاستمساك بالدين والارتباط بحبل الله المتين وتحقيق أسباب النصر، فمتى كان ذلك كان الصعود الحضاري بأوسع التجليات، ومتى كان العكس كان السقوط الحضاري وإن تمثل في شكل هزيمة عسكرية محدودة لها ما بعدها، أو تأخر في سلم الرقي الحضاري في مجال الصناعة والعمران.

ومن هذا المنطلق فالمسار التاريخي لأمة الإسلام بين مد وجزر، وصعود وهبوط، ونصر وهزيمة، وإن غلبت الانتصارات في القرون الأولى، والهزائم في القرون الأخيرة.

ومن أبرز الأمثلة الشاهدة على ذلك ما وقع في غزوة أحد من كبوة شديدة التأثير بالغة المفعول على المستوى النفسي والعسكري، عندما انقلب نصر المسلمين إلى هزيمة وتقدمهم إلى تراجع، وأصاب المشركون منهم مقتلة عظيمة من خيرة الصحابة، ولسنا بوارد ذكر أسباب الهزيمة، وإنما الإشارة إلى شدة وقعها على نفسيات الصحابة بما يُنشأُ تخوفا من الانكفاء على الذات، والاستسلام للواقع، والقعود عن القيام بالواجب، وهو النهوض من الكبوة والاستفاقة من الغفلة، قبل أن يحيق عقاب الله بالمتخلفين، وهو الذي بادر القرآن الكريم بعلاجه في أشد ساعات الهزيمة النفسية في غزوة أحد، قال تعالى [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

28- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر –دمشق- طبعة 1406هـ/1986م، ص:151

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا][29].

(بهذا المنهج الإسلامي الفريد قاد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الخروج من أزماتهم كلها ومنها أزمة أحد.. فها هو صلى الله عليه وسلم بعد أحد بيوم واحد .. يتخذ القرار لمطاردة المشركين العائدين إلى مكة بما يشبه الانتصار.. وأصر صلى الله عليه وسلم ألا يأخذ معه في هذا الخروج إلا من اشترك في أحد، وقال: "لا يخرج معنا إلا من شهد القتال"..

برغم أن أولئك الذين شهدوا القتال بالأمس سيخرجون اليوم والجراح تملأ أجسادهم ونفوسهم جميعًا.. إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يداوي هذه النفوس الكسيرة بعمل من شأنه أن يرفع معنوياتهم ويرد إليهم هيبتهم ويضعف من حلاوة النصر لدى قريش إذا اختتم المشهد بمطاردتهم إلى مكة!!.

ولقد قاموا جميعًا ولم يتخلف واحد.. ونجحوا في الاختبار وقامت الأمة من كبوتها في أقل من أربع وعشرين ساعة!!

وخرج المسلمون للقتال في إصرار، وعسكروا في (حمراء الأسد) وهو مكان علي بعد ثمانية أميال من المدينة.. وكان جيش قريش معسكرًا على بعد ستة وثلاثين ميلاً.. فلما سمعوا بمقدم المسلمين ترددوا في قتالهم وأرسلوا إليهم من يخوّفهم من أعداد المشركين وقوّتهم.. ولكن هذا التهديد الآن صادف نفوسًا عادت إليها قوتها وعافيتها، فما تأثرت نفوس المؤمنين قيد أنملة بل على العكس ازداد إصرارهم على القتال، وازدادوا رغبة في الخروج من الأزمة، وإعادة الكرة على الكافرين ...

وإزاء هذا الإصرار من قبل المؤمنين فر المشركون وتجنبوا القتال مع كثرة عددهم وقوة عدتهم.. وخرج المسلمون من أزمتهم بنجاح.. وهكذا يصنع الإصرار في نفوس أصحابه وفي نفوس خصومهم..

29- آل عمران: 144.

ومجّد الله . في آيات بينات . أصحاب حمراء الأسد.. مع أنهم هم أهل أُحد الذين وقعوا في أخطاء الأمس، ولكنهم أحسنوا الخروج من آثار أخطائهم..

يقول تعالى: [الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ][30])[31].

ومن أبرز الشواهد أيضا ما وقع في مبتدإ خلافة أبي بكر الصديق: (فقبل وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم –، كانت الأمة في عز وسؤدد، وقوة ومنعة، وحينما توفي صلى الله عليه وسلم، مرت الأمة بأزمة عصيبة، ومرحلة خطيرة؛ حيث عَظُمَ الخطب، واشتد الكرب، وظهر مدّعو النبوة، وامتنع قوم عن أداء الزكاة، وارتد من ارتد من العرب، حتى إنه لم يبق للجمعة مقام في بلد سوى في مكة والمدينة، وأصبح حال المسلمين كما يقول عروة . رضي الله عنه .: «كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم، وقلة عددهم، وكثرة عدوهم» حتى وُجد من المسلمين من بلغ به اليأس أن قال لأبي بكر . رضي الله عنه .: «إن هؤلاء جُل المسلمين والعرب على ما ترى قد انقصت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين»[32] .

في ظل تلك الأوضاع، واليأس قد بلغ منتهاه، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة مرة أخرى؟!

ولكن أبا بكر . رضي الله عنه . لم يعتره اليأس، ولم يتملكه القنوط، وإنما واجه هذه الأحداث، وهذه البلبلة، وهذه النكبات، بإيمان راسخ، وعزيمة ثابتة، وتفاؤل عظيم، حتى

30– آل عمران 172 – 174 .

31– "المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية" د/ راغب السرجاني ضمن موسوعة "الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال الحاضر" جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود .

32–البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي –بيروت– ط1408هـ /1988م (335/6).

ثبت وحارب مدعي النبوة والمرتدين، وأعاد للمسلمين قوتهم، وللخلافة هيبتها، ولليائسين تفاؤلهم)[33].

وعبر القرون المتوالية حدث ما يشبه ذلك، سقوط وهزيمة ثم نهوض وانتصار، فقد استباح الصليبيون في أواخر القرن الخامس الهجري بلاد المسلمين واحتلوا بيت المقدس وتحكموا في مصير البلاد والعباد عقودا من الزمن، ثم كان الانتصار الساحق في معركة حطين على يد صلاح الدين الأيوبي والعصبة المؤمنة.

وفي القرن السابع كانت الكارثة أكبر والدمار أشد والمذبحة أفظع على يد المغول التتار الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، -والقصة معروفة أشرنا إليها-، ثم كان النصر المؤزر المبين في المعركة الحاسمة بعين جالوت على يد البطل سيف الدين قطز ومن معه من جنود الإسلام.

وفي القرن الرابع عشر الهجري حين سقطت آخر قلاع الخلافة العثمانية، وظن اليائسون أن معالم الإسلام قد اندرست ولا أمل في الانبعاث والنهوض، ولكن مشيئة الله اقتضت أن ينبعث المارد من جديد، وما هذه الصحوة الإسلامية وما صاحبها من إحياء فريضة الجهاد في سبيل الله في عدد من البلاد المغصوبة المنهوبة، إلا بشائر الأمل في الرجوع والنهضة، بل والقيادة إن شاء الله.

33- المصدر مجلة البيان –السعودية- عدد 218 شوال 1426 ص6 عنوان المقال "الهزيمة النفسية وفقه المرحلة" عبد العزيز عبد الله الحسيني

ثانيا: الأسباب الخارجية

أ- قوة الأعداء وتسلطهم على مقدرات المسلمين (الاحتلال):

لقد كانت القوة العسكرية ولا زالت هي الخيار المفضل لأعداء الإسلام قديما وحديثا، لإسكات الصوت الإسلامي أو ترويضه على أقل تقدير، ولئن كان بروزها فيما مضى محدودا بحكم القوة والمنعة التي اكتسبها المسلمون في وقت قياسي، وبسط سيطرتهم على العالم في سنين معدودة بفضل هداية السماء التي تملأ جوانحهم وتتحكم في مساراتهم، وكذا أخذهم بأسباب القوة المادية والمعنوية التي وضع معالمها وأرسى قواعدها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن قوة العدو تظهر بين الحين والآخر في فترات الضعف والوهن التي مرت بأمة الإسلام وتكون سببا في هزائم عسكرية مروعة، سرعان ما تكون هي ذاتها سببا في النهوض من جديد، كما كان الأمر بالنسبة لغزو التتار لبلاد المسلمين، وما أحدثوه من مذابح مروعة، ودمار هائل للبنى التحتية، وكذا الحروب الصليبية التي انتهى بها الأمر لاحتلال بيت المقدس.

لكن قوة العدو وتسلطهم على مقدرات المسلمين برزت بشكل جلي في العصر الأخير على شكل استعمار عمّر طويلا في بلاد الإسلام، وما زالت لغة الغزو العسكري والقوة التدميرية هي الورقة الأولى التي تشهر في وجوهنا، بل وتقتحم أراضينا وأجواءنا كلما أردنا النهوض، أو أبدينا شيئا من الممانعة.

إن هذه القوة العسكرية تحدث زلزالا هائلا على مستوى النفوس الضعيفة والقوى الخائرة، فتشل فيها القدرة على المقاومة بل والصمود، فتسلم قيادها للقوي على شكل استسلام مادي سرعانما يتحول إلى استسلام فكري وأخلاقي وأدبي، وتلكم هي الطامة الكبرى، لأن حجم الهزيمة الداخلية هو الذي يحدد مصير المعركة الخارجية زمانا ومكانا ونوعا.

وهو الأمر الذي أدركه فيلسوف الحضارة مالك بن نبي عندما قال: (..ولكن هناك أيضا جانبا خارجيا هو جانب الاستعمار، وهو لا يظهر هنا في سورة أسطورة تكف العالم الإسلامي عن التطور، وذهّان يشله عن التغلب على مصاعبه النفسية والاجتماعية

فحسب، بل يظهر أيضا في صورة محسّنة، وأعمال سالبة تهدف إلى طمس قيم الفرد، وإمكانات تطوره، ويكون هذا الجانب أكثر ظهورا حينما يكون الاستعمار استبداديا)[34].

ولقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من خلال توجيهاته النبوية إشارة لا تخطئها العين على أن الأمة ستقع فريسة قوى الشر والقهر بسبب الهزائم النفسية التي تولدت عن الرعب من الآخر الأقوى ظاهرا، وكذا الرغبة في الحياة دون دفع ضريبة العيش بعزة وكرامة، والاستسلام لرغائب الجسد الهابطة. فقال: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)[35].

ب– مكايد المنافقين والمندسين:

أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، يكيدون للإسلام والمسلمين يظهرون تارة ويستترون أخرى حسب موازين القوى، وظهورهم بالكيد والإرجاف والتثبيط عقب كل هزيمة أمر لا تخطئه العين ولدرء خطر دسائسهم على نفسيات ومعنويات الفئة المؤمنة، حذر الله عز وجل عباده المؤمنين من الاستماع إليهم والتسليم بنصائحهم في مثل هذه المواضع.

ومن ذلك ما قاله ربنا عز وجل تحذيرا من طاعة أهل الكفر ومن على ملتهم فيما أوحوا به للمؤمنين المقاتلين عقب هزيمة أحد في ثوب النصيحة والحرص.

34– وجهة العالم الإسلامي، مالك ين نبي،دار الفكر –دمشق– ط143هـ/2002م ص:108.

35–رواه أحمد في مسنده، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة: الأولى، 1421هـ– 2001 م (332/14) برقم: 8714، وأبو داود في سننه كتاب "الملاحم" باب "باب فِي تَدَاعِي الأُمَمِ عَلَى الإِسْلاَمِ" دار الكتاب العربي – بيروت – (184/4) صححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت– (1359/2) .

{يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين}[36].

وما أبدع ما قال سيد قطب تعقيبا على هذه الآية: (لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ليثبطوا عزائمهم ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم . . وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب وخلخلة الصفوف وإشاعة عدم الثقة في القيادة، والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء، وتزيين الانسحاب منها ومسالمة المنتصرين فيها! مع إثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية، وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ثم لهدم كيان العقيدة ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين!)[37].

وفي ذات السياق القرآني اتجهت السنة النبوية، حيث عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن تخوفه على أمته من خطر النفاق وأهله فقال: (أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)[38].

ج–الحرب النفسية

(... والحرب النفسية أخطر أنواع الحروب، لأنها تستهدف في المقاتل عقله وتفكيره وقلبه، لكي تحطم روحه المعنوية وتقضي على إرادة القتال فيه، وتقوده بالتالي نحو الهزيمة.

ومن هنا جاءت خطورة سلاح الحرب النفسية الذي أصبح في العصر الحديث يحتل مكان الصدارة بين أسلحة الحروب)[39].

ويقول الجنرال ديغول: (لكي تنتصر دولة ما في حرب، فإن عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوات حتى تنتهي من مهمتها)[40].

36- آل عمران: 149

37- الظلال 465/1.

38- رواه أحمد في مسنده (289/1) برقم: 144 صححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته (107/1) برقم: 237 .

39- المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية للواء جمال الدين محفوظ، نقلا عن الحرب النفسية د/ عبد الرزاق نوفل ص: 29.

ويقول الدكتور علي حسني الخربوطلي معلقا على الحرب النفسية التي شنت على المسلمين وتكالبت عليهم فيها كل القوى المشركة واليهودية في العهد المدني: (والحرب النفسية هي أخطر الحروب التي تواجه الثورات والحركات الإصلاحية، في كل زمان ومكان، فهي تحاول أن تصيب الأفكار والتعاليم الناهضة، وتحول بينها وبين الوصول إلى العقول، والرسوخ في القلوب، وهي تبذر بذور الفرقة والانقسام، وتضع العقبات أمام التقدم والتطور، وتعمل في الظلام، وتطعن في الخلف، وتلجأ إلى تشويش الأفكار، وخلق الأقاويل والإشاعات، ونشر الإرهاب، واتباع وسائل الترغيب والتهديد، مما يجعل هذه الحرب النفسية أشد خطورة من حرب المواجهة العسكرية في ميادين القتال)[41] .

فلقد لجأ المشركون إلى هذا النوع من الحروب كسلاح لكسر معنويات المسلمين، قبل المواجهة أو أثناءها، لكسب المعركة، أو ضمان عدم المقاومة، ومن ذلك ما أذاعه المشركون في غزوة أحد، بمقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم للتأثير على معنويات المسلمين، وتسليمهم بالهزيمة، وقد كان لهم ما أرادوا، وهو ظرف يعتبره خبراء الحرب النفسية من أفضل الظروف الملائمة للحرب النفسية .

المطلب الثاني: أثرها في السقوط الحضاري

أولا: الهزيمة العسكرية:فالهزيمة النفسية مقدمة للهزيمة العسكرية، وشواهد التاريخ كثيرة في القديم والحديث وإن قلّت في الصدر الأول للإسلام وكثرت في الزمان الأخير، تبعا للصعود والهبوط على المستوى النفسي.

ففي حياة النبي صلى الله عليه وسلم تجرع المسلمون عددا من الهزائم العسكرية المحدودة وكان السبب الرئيس في تلك الهزائم، الضعف الداخلي الناجم عن مخالفة أو ركون إلى الدنيا، أو غرور ازدرى ما عند الآخر، فكان من جراء ذلك الهزيمة النفسية التي ترجمت في الميدان في ثوب هزيمة عسكرية.

40- الحرب النفسية د/ عبد الرزاق نوفل ص: 29 .

41- الرسول صلى الله عليه وسلم والحرب النفسية، د.علي حسن الخربوطلي نقلا عن الحرب النفسية د/ عبد الرزاق نوفل ص: 30-31.

ومن ذلك التحول في مجريات الأحداث في غزوة أحد، فالنصر تحول إلى هزيمة، وما ذاك إلا لأن دواعي النفس كانت حاضرة، حيث كانت أعين عدد من المقاتلين على الغنائم والأموال (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)[42] مما جعلهم يخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكشفون ظهور المسلمين والمعركة لما تنتهي بعد، ووسط أجواء الارتباك وفي لحظة انقلاب موازين القوى لصالح معسكر الشرك، انطلقت سهام البغي صوب النفوس المكلومة ابتداء جراء لحظة ذهول، لتشعل آلة الحرب النفسية لتصل إلى مداها الأقصى وذلك بإشاعة خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم لتصيب المسلمين في مقتل، وكان لهذا وذاك الأثر البالغ في الحسم العسكري الذي عدّ في ميزان التاريخ هزيمة عسكرية.

(وتلك الأيام نداولها بين الناس)[43]، في إشارة لهزيمة المسلمين في أحد بهزيمة المشركين في بدر، (تحقيقاً كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقاً لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً. ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون. كما تتكشف الأخطاء. وينجلي الغبش)[44].

والشاهد الثاني الأشد بروزا في تلك المرحلة ما حدث في غزوة "حنين" التي كانت من أبلغ الدروس وأشدها أثرا وأبعدها مدى، فبعد سلسلة من الانتصارات العسكرية التي حققها المسلمون على العدو القريب والبعيد وبعد بسط سيطرتهم على معظم شبه الجزيرة العربية يتقدمون إلى هذه المعركة التي لم يجتمع لهم فيها من العدد والعدة كما اجتمع يومئذ، وظنوا أن المعركة حسمت من لحظتها الأولى للخلل الواضح في ميزان القوة العددية لصالح المسلمين حتى قال بعضهم (لن نغلب اليوم عن قلة)[45] غرورا وسفها، فكانت الهزيمة ..

42- آل عمران 152.

43- آل عمران 140.

44- في ظلال القرآن تفسير الآية 140 من آل عمران .

45- البداية والنهاية، 369/4.

ونزل الوحي الكريم يحدد مكامن الداء، إنها الهزيمة الداخلية التي أحدثت الهزيمة الخارجية حيث قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}[46] .

يقول سيد قطب (... هذه هي المعركة التي اجتمع فيها للمسلمين – للمرة الأولى – جيش عدته اثنا عشر ألفاً فأعجبتهم كثرتهم، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول وهو التوكل على الله تعالى، فردهم الله بالهزيمة في أول المعركة إليه ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتصقت به، والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية، وبانفعالاتها الشعورية: {إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين }، فمن انفعال الإعجاب بالكثرة، إلى زلزلة الهزيمة الروحية، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم. إلى حركة الهزيمة الحسية، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب..) [47] .

يتحدث الأمير شكيب أرسلان في معرض حديثه عن مظاهر تأخر المسلمين في الأزمنة المتأخرة، أن الهزيمة العسكرية تصير قدرا محتوما على المنهزم نفسيا حيث قال (...وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في أغلب الأحيان على المسلمين، فتوالى هذا الأمر عليهم مدة طويلة إلى أن فقدوا كل ثقة بنفوسهم، واستولى عليهم القنوط ودب فيهم الرعب، وألقوا بأنفسهم إلى العدو، وبعد أن كانوا مسلمين صاروا مستسلمين، وقد ذهلوا عن قوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس)[48])[49] .

ثانيا: مداهنة الظالمين والركون إليهم

46- سورة التوبة: 25.

47- في ظلال القرآن 344/2.

48- آل عمران: 139-140).

49- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، الأمير شكيب أرسلان، مراجعة حسن تميم، منشورات دار مكتبة الحياة –بيروت– ص80

فالمهزوم نفسيا ضعيف الثقة في نفسه وعقيدته، معظّم لغيره من أصحاب القوة والنفوذ الطغيان، ومنقاد إليهم ومستسلم لهم، ولو كانوا على غير دينه وملته، وأمثال هؤلاء لا يخلو منهم زمان أو مكان، وقديما نزل فيهم قرآن يتلى قال تعالى: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) [50] .

قال الحافظ ابن كثير: (أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك) [51] .

كما قال عبد الله بن أبي بن سلول عن موالاته لليهود: "إني لا أدع موالاتهم إني امرؤ أخشى الدوائر" [52] . قال سيد قطب: (ولكن حجة ابن سلول هي حجة كل ابن سلول على مدار الزمان، وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب لا يدرك حقيقة الإيمان) [53] .

ولا يخفى على كل ذي لب أن الركون لأمثال لهؤلاء سيقتضي حتما السكوت على باطلهم والرضى بمنكرهم، وربنا سبحانه حذر في سياق النهي عن موالاة الكفار بجميع طوائفهم ومللهم مجالستهم حين خوضهم فيما يطعن في العقيدة من دون نهي عن المنكر، فكيف بموالاتهم والركون إليهم، قال تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) [54] .

يقول سيد: (وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى . . يسمي ذلك تسامحاً، أو يسميه دهاء، أو يسميه

50- المائدة: من الآية 52 .

51- تفسير ابن كثير، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م (132/3).

52- تفسير ابن كثير: (134/3).

53- في ظلال القرآن 391/2.

54- النساء: 140.

سعة صدر وأفق وإيماناً بحرية الرأي!!! وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله؛ وهو يموه على نفسه في أول الطريق، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان!)[55] الظلال.

ولم يتجل هذا المظهر المخزي المعبر عن الهزيمة النفسية في أبشع صورها، كما يتجلى العقود الأخيرة، حيث صارت مداهنة الظالم، ومصانعة المجرم، ومجاراة الطاغية المستبد، وموالاة الكافر، سمة يتلبس بها قطاع عريض من أبناء هذه الأمة حكاما ومحكومين، والأدهى من ذلك أنهم يعتبرون ذلك تحضرا واعترافا بالواقع ومواكبة لروح العصر.

ثالثا: التقليد والتبعية للغالب

ولا شك أن أكثر الأوضاع الداخلية فتكا بالمقدرات الحضارية للأمة هو شعور أفرادها بالعجز والهوان والضعف في مواجهة الآخر أو ما يعبر عنه بـ " الهزيمة النفسية ".

هذا الشعور قد يتطور إلى شكل من أشكال التبعية والتقليد للآخر

وقد تحدث ابن خلدون عن هذه الظاهرة، ظاهرة الانبهار بالآخر المنتصر والتي تؤدي به في النهاية إلى التقليد والتبعية، لأن عوامل المناعة الذاتية صارت منعدمة عنده فقال: "إن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه ولذلك ترى المغلوب يشتبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه بل وفي سائر أحواله"[56] .

ويقول فيلسوف الحضارة مالك بن نبي في سياق تحليله لنظريته الشهيرة نظرية "قابلية الشعوب المستعمرة للاستعمار" : (إن القضية عندنا منوطة أولا، بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين "أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم".

55- حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، ط:1، 1991/1412، المكتب الإسلامي، بيروت. ص: 52.

56- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، -بيروت- ط4-147/1.

إن الاستعمار لا يتصرف في طاقاتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد كصواريخ موجهة يصيب بها من يشاء، فنحن لا نتصور إلى أي حدّ يحتال لكي يجعل منا أبواقا يتحدث فيها، وأقلاما يكتب بها إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا بعلمه وجهلنا)[57] .

وهذا الذي عبر عنه ابن خلدون بنظرية تقليد المغلوب للغالب، والتي تمهد أرضية للقابلية بالاستعمار بتعبير فيلسوف الحضارة مالك بن نبي، هو الذي سعت الشريعة الإسلامية من لحظتها الأولى لمعالجته، من خلال نصوص القرآن والسنة التي تنهى أهل الإيمان عن التشبه بالكفار.

فإن كان القرآن الكريم قد أشار إلى خطورة هذا المسلك، وضرورة تجنبه، ورتب عنه وعيدا شديدا في إشارات عامة ولكنها حاسمة، فإن السنة النبوية وفي عدد غير قليل من الأحاديث فصلت ذلك العموم والإجمال، بالنهي عن التشبه بالكفار في العوائد والأحوال والسلوك والمظاهر.

فمما ورد في التحذير من تقليدهم والتشبه بهم قوله صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما–: (بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم)[58] .

وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: (ليس منا من تشبه بغيرنا)[59] .

57– شروط النهضة، ص:155.

58– رواه أحمد في مسنده – طبعة مؤسسة الرسالة – (123/9) برقم: 5114. صححه الألباني، انظر صحيح الجامع (546/1) برقم: 2832

59– رواه الترمذي في سننه – تح شاكر– أبواب "الاستئذان والآداب" باب ما جاء في كراهية إشارة اليد بالسلام" (56/5) برقم: 2695، وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع وزياداته ص: 956/2 برقم: 5431 .

وقد تكاثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (خالفوا المشركين) (خالفوا المجوس) (خالفوا اليهود) (خالفوا أهل الكتاب) في كثير من العوائد والأحوال والمظاهر كما أشرنا – سلفا – وعقدت كتب السنة أبوابا طويلة وعريضة لهذا الشأن.

وكل هذه التوجيهات النبوية، جاءت حرصا من النبي صلى الله عليه وسلم على ضرورة محافظة الأمة على شخصيتها وكينونتها وتميزها على معسكر أهل الكفر والضلال.

وما حذر منه صلى الله عليه وسلم أمته وقع الكثير منه في فترات مختلفة من تاريخ هذه الأمة، وتجلى ذلك بارزا في عصرنا هذا، ولقد تنبأ نبينا عليه الصلاة والسلام بوقوع ذلك، فقال في معرض التحذير من التشبه بالكفار: (لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم)، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟!)[60] .

يقول سيد قطب تعليقا على عدد من الأحاديث النبوية التي تنهى عن التشبه بالكفار: (نهى عن تشبه في مظهر أو لباس. ونهى عن تشبه في حركة أو سلوك. ونهى عن تشبه في قول أو أدب... لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصوراً عن تصور، ومنهجاً في الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة.

ثم هو نهى عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في الأرض. نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين)[61] .

ويقول تعقيبا على قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ...}[62] .

60- رواه البخاري كتاب "الاعتصام بالكتاب والسنة" باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم) دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – الطبعة الثالثة، 1407 – 1987 تحقيق: د. مصطفى ديب البغا (6/ 2669) برقم: 6889 .

ومسلم في صحيحه – تح عبد الباقي – كتاب "العلم" باب " بَابُ اتِّبَاعِ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى" (2054/4) برقم: 2669.

61- في ظلال القرآن 98/1.

(إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة...)[63]

وهذا لا يعني أن كل تقليد محرم، فتوجيهات النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه كانت تدفع إلى اقتناص المفيد ومن أي وعاء خرج باعتباره ضالّة ينبغي نشدانها، ولكن المطلوب التبصر والوعي.

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (فالقاعدة الإسلامية العامة في هذا الصدد هي أن لا يُعطل المسلم عقله الحر وتفكيره الدقيق في سلوكه وعامّة شؤونه وأحواله، وإذا كان المسلم كذلك فهو لا ريب لا يمكن أن يربط في عنقه زماما يسلّم طرفه للآخرين فيقودوه حيث ما أرادوا بدون وعي ولا بصيرة، وهو أيضا لا يمكن أن يتجاهل أيّ مبدإ أو عمل أو نظام يُسلّم به العقل النيّر والفكر الحرّ وينسجم مع مبادئ الشريعة الإسلامية لا يتجاوزه ولا يُتعب نفسه بأخذه والاستفادة منه)[64] .

رابعا: انعدام الطموح وفقدان روح الإبداع

وذلك بسبب الأخيلة النفسية التي أوحت لصاحبها أن البون شاسع والفرق كبير بيننا وبين الآخر الكافر الذي امتلك الفكرة والوسيلة والمناخ العام للابتكار، فاستطاع بسبب ذلك أن ينفذ إلى أعماق الأرض، وأن تستقر به القدم ولو لساعات على سطح القمر، وأن يسخر هذا وذاك وما بينهما لصالح خدمة الإنسان أو تدميره، في مقابل استبداد واستعباد واستبعاد صار منهجا مرسوما في سائر بلاد الإسلام تقريبا، فما كان من المهزومين نفسيا إلا التسليم والرضى بالواقع.

وغفل هؤلاء في حمأة سكرتهم عن النظر إلى تراثنا الإسلامي نصا وتاريخا، ولو فعلوا ذلك لوجدوا حشدا من نصوص الكتاب والسنة جاء يدعو في مجمله إلى ضرورة استخدام العقل في الابتكار النافع والإبداع الجميل، واختراع ما تجود به القرائح المبدعة من صور

62- البقرة: 100.

63- الظلال 406/1

64- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر.ص: 297.

العمران والإصلاح والتجديد في العلم والعمل والفن، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: (من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء...)[65].

ولو التفتوا إلى صفحات التاريخ لوجدوا حضارة مُشرقة صنعها الأسلاف، فاضت بخيراتها على العالم طوال قرون، ما كان لها أن تكون لولا إحساسهم بأن الإبداع والابتكار واجب يفرضه الدّين وضرورة يُحتّمها الواقع، فَهِموا كل ذلك من خلال آيات الرحمن وسنّة سيد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ويكفي أن ينظر الإنسان إلى روعة هذا النص النبوي الذي يؤكد فهي نبينا عليه الصلاة والسلام على ضرورة العمل والإبداع وصناعة الفعل الإيجابي، في عملية مستمرة غير منقطعة وإلى آخر لحظة من عمر الإنسان بل الدنيا، فعن أنس بن مالك τ قال: قال رسول الله ε:(إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل)[66].

والغراس هنا ليس مقصودا لذاته وإنما يُؤشر إلى غيره من الأعمال النافعة الجليلة التي ينبغي أن تستمر مادامت الحياة. يقول الدكتور عماد الدين خليل معلقا على الحديث (...فنعرف جيدا كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب ونعلم تماما كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر)[67].

خامسا: اليأس من إمكانية التغيير

65- مسلم كتاب العلم، باب من سنّ سنّة حسنة أوسيئة (شرح النووي 392/8)، وكذا في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، انظر صحيح مسلم بشرح النووي، مكتبة الإيمان – المنصورة مصر- (108/4)، من حديث جرير بن عبد الله.

66- أحمد في مسنده، انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال، دار الفكر. (191/3) وقد ذكره الألباني في "الصحيحة" برقم 09 (38/1) وقال: صحيح على شرط مسلم.

67-حول تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ط:1، 1989/1410، مطبعة الفيصل، الكويت.، ص: 110.

قمّة العجز في عدم الثقة في النفس وإقناع الذات بأنّه ليس بالإمكان أبدع مما كان، هذه المقولة اليائسةُ البائسة التي تحوّلت إلى شعار يعبّر عن العجز والعطالة والخمول والهزيمة، كما عبّر عن ذلك الدكتور عمر عبيد حسنة عندما قال: ("ليس بالإمكان أفضل مما كان" شعار العاجزين الذي يجعل واقعهم مسترخيا، ومذهبهم مرجئا في الوقت الذي نرى فيه شعار العالم الدائم أنه بالإمكان باستمرار أفضل مما كان، وعندهم أنّه لابد من مقابلة الدرس والاختبار وإعادة قراءة الماضي لكشف جوانب القصور، وأسباب التقصير، واستدراك ذلك بصناعة واقع أفضل واستشراف مستقبل أكثر سدادا وصوابا. وأعتقد أن هذا الشعار الذي انقلب إلى مُسلّمة في حياتنا، من الأمور التي ساهمت في عطالة الأمة وانطفاء فاعليتها وعجزها من الإفادة من ماضيها لحاضرها، ومن حاضرها لمستقبلها)[68].

يقول سيد قطب: (... فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً. فأما إذا بعثت الهمة، وأذكت الشعلة، وبصرت بالمزالق، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق ... فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد ولو طال الطريق!)[69].

فالقنوط واليأس الذي ينتاب النفوس عقب الهزائم العسكرية هو أخطر من الهزيمة نفسها، لأنه إن استحكم في النفوس فسيشل العقول والأيادي عن أي فعل إيجابي يرد للأمة كرامتها المسلوبة ومجهدها الضائع.

وقد شخص المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه النفسيات المهزومة تشخيصاً دقيقاً فقال: (إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكَهم، أو فهو أهلكُهم)[70] بالضم والفتح،

68- حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، ط:1، 1991/1412، المكتب الإسلامي، بيروت.ص: 52.

69- في ظلال القرآن 266/2.

70- صحيح مسلم بشرح النووي (347/8) كتاب (البر والصلة) باب (النهي عن قول هلك الناس)برقم: 2623 .

والضم أشهر كما قال النووي : (فهو أهلكُهم) أي: فهو أشد الناس هلاكاً، أو (فهو أهلكَهم) أي: هو الذي حكم عليهم بالهلاك وليسوا كذلك.

وقال النووي رحمه الله تعالى: (من قال ذلك على سبيل الازدراء والتحقير للناس مع إعجابه بنفسه فهذا مذموم، أما من قال ذلك لما يرى في نفسه وللمسلمين من تقصير فلا بأس بذلك"[71].

هذا تأصيل هام جداً، لا بد أن يفهم من خلاله حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكَهم، أو فهو أهلكُهم).

يقول الأمير شكيب أرسلان: (قد انضم إلى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد وقر في أنفسهم أن الإفرنج هم الأعلون على كل حال، وإنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وإنّ كل مقاومة عبث، وإنّ كل مناهضة خرق في الرأي، ولم يزل هذا التهيّب يزداد ويتخمر في صدور المسلمين أمام الأوروبيين إلى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين)[72].

إنّ دنيا الناس اليوم لا تعترف إلاّ بالأقوياء علما وعملا، وفكرا وسلوكا، وإبداعا وإتقانا، ممّن لا يعرف العجز والكسل إليهم سبيلا. ولا يرضون العيش على هامش الحياة بل يقتحمون صلبها ويركبون متنها بكل إيجابية ودافعهم في ذلك حديث رسول الله ε: (المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)[73].

سادسا: السلبية في الدعوة إلى الله

71- صحيح مسلم بشرح النووي (347/8).

72- لماذا تأخر المسلمون الأمير شكيب أرسلان، مرجعة حسن تميم، منشورت دار مكتبة الحياة – بيروت- ص77

73- مسلم كتاب القدر، باب بالأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، برقم 2664 (شرح النووي 382/8).

إن الركون إلى الدنيا بلذائذها وشهواتها تقعد النفس عن النهوض بالأعباء، حتى إذا فشا المنكر واستفحل بين الناس برر لنفسه سلبيتها ربما، بما جاء عن رب العالمين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[74].

وقديماً خشي الصديق رضوان الله عليه هذه السلبية القاتلة على أفراد الأمة، فارتقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس! إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم جميعاً بعقاب من عنده –وفي لفظ: إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك الله أن يعمهم جميعاً بعقاب من عنده– ثم يدعونه فلا يستجاب لهم)[75].

وفي الصحيح من حديث النعمان بن بشير : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً حتى لا نؤذي من فوقنا، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: لو تركوهم وما أرادوا لهلكوا وهلكوا جميعاً، ولو أخذوا على أيديهم لنجوا ونجوا جميعاً)[76].

ونصوص القرآن والسنة التي تدعو للنهوض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ دعوة الله، أكثر من أن تعد وتحصى، وليس هنا المجال لمزيد تفصيل، وفيما ذكرنا ما يغني.

الخاتمة:

74- [المائدة: 105] .

75- والحديث رواه أحمد (5/1) وأبو داود كتاب (الملاحم) باب (الأمر والنهي) (214/4) برقم 4340 والترمذي كتاب (الفتن)، (نزول العذاب إذا لم يغير المنكر)(467/4) برقم: 2321 .

76-أخرجه البخاري، كتاب (الشركة)، باب (باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه)، انظر صحيح البخاري (882/2) .

وبعد هذه الجولة السريعة التي أمطنا فيها اللثام عن موضوع هام وخطير، يتعلق بالهزيمة النفسية وأثرها في السقوط والأفول الحضاري في ضوء نصوص السنة وأحداث السيرة النبوية.

أفضت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج والتي من أهمها.

1. أن الهزيمة النفسية ومن خلال التعاريف، هي عبارة ضعف داخلي يلم بالأفراد، فيقعدهم عن العطاء وردة الفعل الإيجابية، وهذا الداء لا يكاد يسلم منه أحد، ولو لفترات يسيرة.

2. السنة النبوية اهتمت برصد هذه الظاهرة والتحذير منها ومن تداعياتها، وكشفت عن بعض أسبابها، وهذا من خلال استقراء النصوص، واستنطاق المعاني، وجمع أجزائها لبعضها البعض.

3. السيرة النبوية هي السنة العملية التطبيقية التي تجلت من خلال بعض أحداثها، خطر هذا الداء إن استحكم في صناعة الهزيمة أو تأخر النصر، وغزوة أحد مثال عملي ناطق.

4. أثر التوجيهات النبوية النظرية والعملية في عدم الاستسلام لليأس والإحباط، والتعلق بخيط الأمل لصناعة النجاح من خلال أخذ زمام المبادرة من جديد وغزوة حمراء الأسد نموذج على ذلك.

5. من خلال السنة والسيرة وعبر التاريخ تبين أن الهزيمة النفسية أشد فتكا على الأمم والأفراد من الهزائم العسكرية، لأنها هي التي تهيئ أجواء القابلية للاستعمار، والاستعمار غالبا ما يكون سببا ليقظة الأمة من سباتها، أما الهزيمة فقد تجثم على صدر الأمة طويلا.

6. الهزيمة قد تكون في حدها الأدنى انكفاء على الذات، وهروبا من الواقع، وقد تصل إلى حد تقليد المغلوب للغالب وهذا هو الأعم الأغلب.

7. الهزيمة لا ترتبط بسبب واحد، بل تتعدد الأسباب وتتنوع، بين أسباب مادية، وأخرى معنوية.

8. مظاهر الهزيمة كثيرة ومتعددة، وهي المشهد المعبر عن السقوط الحضاري.

9. السقوط الحضاري لا يعني زوال الأمم وفناء الشعوب بالضرورة، وإنما قد يعبر عن زوال التأثير وغياب الأثر، وهذا الذي تردت إليه الأمة الإسلامية في الزمان الأخير، وفي بعض الفترات التاريخية الأخرى.

المصادر والمراجع

1. أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوي، دار الاتحاد العربي للطباعة لصاحبها محمد عبد الرزاق —القاهرة–.

2. البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي —بيروت– ط1408هـ/1988م.

3. تفسير ابن كثير، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية 1420هـ – 1999 م

4. حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، ط:1، 1991/1412، المكتب الإسلامي، بيروت.

5. الحرب النفسية —دراسات إسلامية هادفة– د: أحمد نوفل، دار الشهاب باتنة 1987 (114/1).

6. حول تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ط:1، 1989/1410، مطبعة الفيصل، الكويت.

7. الروايات التفسيرية في فتح الباري، عبد المجيد الشيخ عبد الباري، وقف السلام الخيري، الطبعة الأولى 1426 هـ – 2006 م .

8. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط: 1995/1415، مكتبة معارف الرياض.

9. سنن أبي داود، دار الكتاب العربي —بيروت–.

10. شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر —دمشق– طبعة 1406هـ/1986م.

11. الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة – القاهرة– ط1417هـ/1997م.

12. صحيح البخاري دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – الطبعة الثالثة، 1407 – 1987 تحقيق : د. مصطفى ديب البغا.

13. صحيح مسلم بشرح النووي، مكتبة الإيمان –المنصورة مصر–.

14. صحيح مسلم بشرح النووي دار إحياء التراث العربي – بيروت – طبعة:2 /1392هـ

15. صحيح الجامع الصغير وزياداته الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت–

16.صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي –بيروت– .

17. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر.

18. في ظلال القرآن، سيد قطب الطبعة السابعة سنة 1398هـ– 1978م، دار الشروق، بيروت.

19. الكافي الشافي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الزيلعي، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن السعد دار ابن خزيمة – الرياض – 1414هـ، الطبعة: الأولى.

20. لسان العرب، لابن منظور، دار صادر –بيروت– طبعة 6، 1417هـ/1997.

21. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، الأمير شكيب أرسلان، مراجعة حسن تميم، منشورت دار مكتبة الحياة –بيروت–.

22. مجلة البيان –السعودية– عدد218 شوال 1426.

23. مجلة البيان، العدد: 214، جمادى الآخرة، 1426 هـ، –السعودية–.

24. مختار الصحاح لابن أبي بكر الرازي، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – طبعة، 1415 – 1995.

25. مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال، دار الفكر.

26. مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة –بيروت– الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م

27. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، 1411هـ/1990م، دار الكتب العلمية – بيروت –

28. المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق : طارق بن عوض الله، دار الحرمين - القاهرة، 1415.

29. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة : 1399هـ - 1979م،.

30. مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، –بيروت– ط4.

31. وجهة العالم الإسلامي، مالك ين نبي،دار الفكر –دمشق– ط143هـ/2002م.